

## قصة فيلسوف عاشق

لا أعلم أن الفلسفة تحظر الحب على أهلها، بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها وليس إلا لفظا من ألفاظ الحب ولكن هذا الحب إذا احتل قلبا شغله عن كل شيء واستأثر بكل ما فيه من قوة وعاطفة وهوى ولم يدع من ذلك للحياة اليومية العاملة إلا شيئا يسيرا جدا.

فالفلسفة حب الحكمة وهذه الحكمة شديدة الغيرة، شديدة الأثرة لا تحب الشركة ولا ترضاها ولا تسمح لعشاقها بأن يصفوا بودهم شيئا أو أحدا غيرها فمن فعل ذلك أو شيئا منه فليس هو من الحكمة في شيء وإنما هو رجل مثلك ومثلي يغشي الأندية ويضطرب في الشوارع ويعيش مع الناس وليس له حظ من المدينة الفاضلة التي يسكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم.

لذلك كان أمر هذا الفيلسوف الذي أحدثك عنه عجا من العجب وفنا من هذه الفنون النادرة التي لا يظفر بها المؤرخون والقصاص إلا في مشقة وعسر وإلا على أن تفرق بينها القرون الطويلة والعصور البعيدة والذي أعرفه أن التاريخ لم يظفر قبل فيلسوفي هذا العظيم بعاشق قد دلته الحكمة وعبث بلبه جمال إلهتها العليا ولكنه على ذلك استطاع أن يشغف بإلهة أخرى يشركها مع هذه الإلهة التي كان يصورها اليونان في صورة أتيانا تلك التي خرجت من رأس أبيها زوس تامة الخلق مكتملة الشباب فيما جمال فتان ولكن فتنة تخلص بقوتها لا برقتها.

لم يعرف التاريخ من عشاق أتيانا استطاع كما استطاع فيلسوف العظيم أن يشرك معها من النساء في حبه وهيامه وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما اختص به إلهة الحكمة نفسها وأن ينتهي به الأمر إلى أن يخط ابنة زوس يابس ويتخذ منهما شخصا واحدا يحبه ويقدمه ويصوغ له دينا قويا خصبا ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الإنسانية كلها أو على الإنسانية ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الإنسانية كلها أو على الإنسانية المسيحية على أقل تقدير.

أظنك قد عرفت هذا الفيلسوف فهو أغست كونت مؤسس الفلسفة الوضعية وواضع علم الاجتماع وصاحب السلطان العظيم على العقل الفرنسي ثم الأوروبي ثم الأمريكي عصرا طويلا من القرن التاسع عشر وأظنك قد عرفت هذه المرأة التي زاحمت الفلسفة في قلب أغست كونت فكادت تغلبها عليه أو غلبتها عليه بالفعل ثم أصبحت إلهة للفيلسوف يعيدها كما يعيد النصارى المسيح وكما كان الوثنيون من اليونان يعبدون أتيئا أو أرتميس ثم أصبحت إلهة لجماعة من تلاميذ الفيلسوف المتفوقين في أطراف الأرض ثم أقيم لها معبد لا يزال يحج إليه إلى الآن في باريس وأقيمت لها معابد متفرقة في أمريكا الجنوبية حيث لا يزال للفيلسوف أتباع يشايعونه في القسم المتطرف من فلسفته.

هذه المرأة هي كلوتلد دي فو وأظنك تظمن الآن وقد سمعت هذين الاسمين إلى أنني لا أخترع ولا أتبع الخيال ولا أضع قصة وإنما أكتب فصلا من فصول التاريخ وليس من الضروري أن يلجأ الكاتب إلى الخيال والاختراع ليستطيع أن يمنع قراءه وأن يؤثر في نفوسهم ويثير فيها العواطف الحادة المختلفة التي تعبت بها حين تحس لذة أو ألما وحين تجد حبا أو بعضا وحين تشعر لا بحزن أو مرور فقد تكون الحقائق الواقعة أبرع وأروع من أحسن القصص الخيالية وأبدعها ولكني في حاجة إلى أن أقدم إليك شخص هذين العاشقين قبل أن أحدثك عن عشقهما وأقص عليك ما كان بينهما من غرام.

نشأ أغست كونت مع القرن التاسع عشر ولم يكد يتوسط العقد الثاني من عمره حتى ظهر تفوقه في العلوم الرياضية ولم تكد تتقدم به السن قليلا حتى عرف له هذا التفوق وإذا هو حجة في هذه العلوم وإذا هو لا يقف عندها ولا يقتصر عليها وإنما يفكر في الصلة بينها وبين بقية أنواع المعرفة الإنسانية من جهة ويفكر من جهة أخرى في الحياة الأوربية المضطربة بعد الثورة الإمبراطورية فيحاول أن يضع ترتيبا جديدا للعلوم ويوفق أيضا ويصبح لهذين النوعين من التوفيق صاحب الفلسفة الوضعية ومؤسس علم الاجتماع.

ولكن فلسفته الوضعية كامن حديثة نائرة لا تستأثر بالقلوب استثنا مطلقا ولا تقطع على أهلها سبيل الحياة فسمحت لعاشقها وأغست كونت أن يعيش كما يعيش الناس وأن يحب كما يحبون فعاش وأحب ولكن أي عيشة وأي حب؟ تركت الفلسفة قلبه حرا وشغلت عقله كله فاختر في الحب بحسه وقلبه ولم يختر بعقله فيا ببئس ما اختار! اختار امرأة جشمته الأهوال وعلمته كيف يحتمل الآلام وكيف يتجرع الإنسان مرارة الغيظ كانت هلوكا فاجرة وخيل إلى أغست كونت أنها نقية طاهرة فأحبها وأظهرت له الحب وخطبها فقبلت الخطبة وتزوجها فقبلت الزواج وما هو إلا وقت قصير حتى تبين من أمرها ماكره فخاصمها وقاومتها وأنذرها فازدرته وحاول أن يعاقبها فثارت به وصبر الرجل وصابر حتى جن وإذا هو يلقي نفسه في النهر وإذا الشرطة تستنقذه

وتدفعه إلى المستشفى فيقيم مع المجانين حيناً ثم يفيق فيستأنف الفلسفة ويستأنف التعليم ويستأنف الحب والعذاب ويجن مرة أخرى ويفيق وتتقطع الصلة بينه وبين امرأته في غير طلاق لأن القوانين الفرنسية لم تكن تتيح الطلاق يومئذ فنشاطه إذا موقوف على الفلسفة والتعليم.

في سنة ١٨٤٠ كان فيلسوفنا ممتحناً في مدرسة الهندسة (polytechnique) وكان بين الشبان الذين تقدموا إليه في هذا الامتحان غلام في الخامسة عشرة هو مكسيميليان ماري رآه الأستاذ الفيلسوف وسأله فأحبه وأعجب به ورأى أن الخير في ألا يقبله هذا العام فأجله سنة ثم قبله بعد ذلك واتصلت بين الأستاذ وتلميذه محبة لم تلبث أن بلغت أقصاها وإذا الفتى يميل إلى أستاذه وفلسفته وإلى الحرية خاصة وإذا هو يستقبل من المدرسة ويتبع الأستاذ ويتلمذ له ويعيش من التعليم في المدارس الحرة على كره من أبيه وفي سنة ١٨٤٤ يتزوج هذا الفتى ويعيش مع امرأته في بيت الأسرة حيث يزوره الأستاذ من حين إلى حين وهناك يلقي أخته كلوتيلد فلا يكاد يسمعها ويتحدث إليها حتى تبتدئ بينه وبينها قصة الغرام.

كانت كلوتيلد هذه في الرابعة والعشرين من عمرها ولكن حياتها كانت ممتلئة بالخطوب كان أبوها رجلاً من الطبقة الوسطى عمل في جيش الإمبراطورية وارتقى في آخر عهد الإمبراطور إلى رتبة الكابتن ثم سقطت الإمبراطورية فأحيل إلى الاستيداع وعاش من مرتبه العسكري الضئيل وكانت أم الفتاة من أسرة شريفة من أهل اللورين فنشأت كلوتيلد نشأة فيها بؤس وضيق ولكن فيها احتفاظاً شديداً بتقاليد الطبقة الوسطى ولم تكذ تتجاوز الخامسة عشرة حتى زوجت من رجل يحمل اسماً من أسماء الأشراف ولكن حظه من الشرف كان قليلاً وهو دي فو اقترن بالفتاة وعين جابياً للضرائب وقضى مع امرأته أعواماً لا هو بالسعيد ولا هو بالذي يمنح امرأته قسطاً من السعادة ثم أصبح الناس ذات يوم وإذا هو قد ذهب إلى سفر مجهول وما هي إلا أن يبحث عنه ويفتش عن أمره حتى يظهر أنه قد بدد أموال الدولة وشيئاً كثيراً من أموال الناس في اللعب ثم هرب من فرنسا إلى حيث لم يعرف من أمره شيء.

فظلت هذه المرأة الشابة معلقة لا هي بالمتزوجة ولا هي بالمطلقة محزونة بائسة لا أمل لها في الحياة عادت إلى أسرتها تعيش بينها وعكفت على نفسها تعيد وتبدي ما يجول فيها من خواطر الألم والحزن ثم أخذت تكتب ما تحس وتقيد ما تجد وإذا هي كاتبة لها حظ من أدب ونصيب من خيال وكان جمالها معتدلاً لا إسراف فيه وكانت المحنة قد أفادت رصانة ورزانة وأفاضت على شخصها شيئاً من الحب يعطف النفوس عليها وأجرت في حديثها شيئاً من العذوبة الحلوة الهادئة يحبها إلى القلوب.

فلما لقيها الفيلسوف في بعض زيارته لأخيها نظر إليها فلم تكذ تبلغ نفسه ونظرت هي إليه فأنكرته وأكبرته أنكرت شكله الدميم وصورته القبيحة وخلقته المضطرب المرتبك وأنكرت

صوته الغليظ وحديثه المتكاف ولكنها أعجبت بذكائه وأكبرت عقله وفلسفته وسكتت عنه وسكت عنها واتصلت الزيارات واتصل اللقاء وأخذت نظرات الفيلسوف تستقر على الفتاة وأخذت أذن الفتاة تطمئن إلى حديث الفيلسوف ولكن أحدا منهما لم يشعر بأن صاحبه قد وقع من نفسه موقعا خاصا.

كان الفيلسوف يزور الأسرة ثلاث مرات في الأسبوع وكان يجد لذة ودعة في الزيارة كان يلقي ثلاثا من النساء: أم تلمذه وكانت مشغوفة بالتصوير تحاول دائما أن تصور الفيلسوف وزوج تلمذه وكانت موسيقية تطربه بالتوقيع عن البيانو ولوتيد أخت تلميذه وكانت أدبية تحدثه عن الأدب وعن قصتها التي أنشأتها وسمتها لوسي ورمز غيها لحياتها الخاصة وربما أنشدته شيئا من شعرها ولم يكن الفيلسوف يحب الأدب ولا يحفل بالشعر ولكنه كان يجد لذة في أدب كلوتيد ويزوق الجمال في شعرها وإن لم يكن هذا الشعر جميلا وإن لم يكن مستقيم الوزن أحيانا وكان الفيلسوف يتحدث إلى كلوتيد عن فلسفته الوضعية وعن مجلداته التي ظهرت تذيب هذه الفلسفة في الناس وعن أنصاره وخصومه وعن دروسه في الفلك وكانت الفتاة تعجب بهذا كله وإن لم تكن بطبعها مشغوفة بالفلسفة وكان الفيلسوف يلتمس إرضاءها والتقرب إليها على غير شعور منه فيذكر لها براعة النساء في الأدب والفلسفة وكان هذا الحديث يروقها ويتملق كبرياءها وكانت الفتاة تكبر في نفسها حين ترى الفيلسوف قد رآها لتقته أهلا وذات يوم سقطت على الفيلسوف من السماء سعادة لم يكن يقدرها ولا ينتظرها ولا يحسب لها حسابا زاره تلميذه ومعه أخته وكان الفيلسوف في جماعة من العلماء وكان الحديث علميا عميقا فبتهج الفيلسوف وأعجبت الفتاة وجلست تسمع في إكبار وتثاؤب خفيف لحديث العلماء ثم همت تريد أن تتصرف فجمع الفيلسوف شجاعته كلها في يديه واستأذن الفتاة في أن يزورها في بيتها الخاص فأذنت هنالك بدأت الخصومة بين إلهة الفلسفة وإلهة الجمال هنالك اضطرب وأغست كونت بين العقل والقلب وبين التفكير والحب هنالك أخذ الفيلسوف يسأل نفسه: ما قيمة هذا العلم الخالص الجاف؟ وما قيمة هذا التفكير العميق العقيم؟ ومتى كان الرجل رجلا بعقله دون قلبه؟ ومتى كان الإنسان إنسانا بالتفكير دون الحب؟ أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر في كل وقت ولكنه يستطيع أن يجب دائما وإذا فقد تكون إلهة الفلسفة مسرفة في الطغيان وقد يكون من الممكن أن يتخذ أغست كونت رأسه معبدا لأتينا وقلبه معبدا لكويتيد.

وابتدأت زيارة الفيلسوف للفتاة في بيتها وإذا الحب يعلن وإذا الفيلسوف يلح في حبه ويسلك إلى إقناع الفتاة بهذا الحب طرقا منها الملتوي ومنها المستقيم ولكن كلوتيد لا تحب ولا تهوى إنما تعجب وتكبر فهي ترده عنها في رفق وتطلب إليه مودته دون حبه فلا يكاد يعرف

منها هذا حتى يضيق بنفسه وبالحياء وحتى تضيق به حصته ويعجز جسمه ورأسه عن احتمال هذا الخذلان فهو مريض يلجأ إلى السرير أياما وهو مشفق أن يعاوده نونه القديم على أنه يبيل من مرضه ويحاول أن يجدد عهده بالفتاة ولكنها تحظر عليه زيارتها في بيتها وتعدده باللقاء عند أمها مرتين في الأسبوع فلا يكفيه ذلك فتعده بلقائه مرة تالثة فلا يكفيه ذلك أيضا وتتصل بينهما كتب فيها حوار حلو ملؤه الحنان يصدر عن الفتاة عنيف معوج ملؤه الفلسفة حين يصدر عن الأستاذ ثم يستحيل هذا الحب في نفس الفيلسوف إلى شكل جديد فليس هو حبا عاديا كهذا الذي يكون بين الناس وإنما هو النقاء شخصين عظيمين قد خلقا ليلتقيا ثم ليتعاوننا على إصلاح الإنسانية وإنهاضها هي إذن قد خلقت له ولن يدعها ولن يتخذ غيرها زوجا إذا مات زوجها النائية ثم تستحيل هذه العواطف ويستحيل هذا التفكير إلى فن من الفلسفة يضعه أغست كونت في رسالة ويهدي الرسالة إلى الفتاة بهذا العنوان: رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي في هذه الرسالة يتغير رأي أغست كونت في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغيرا تاما فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه سنوات ميل فيرى أن ليس في المرأة أمل ولا خير أما الآن فهو يرى المرأة عنصرا أساسيا في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه وقد سرت الفتاة بهذه الهدية وكبرت في نفسها فزارت الفيلسوف مع أمها شاكرة له.

هناك نشط الأمل وتجددت الحياة واعتقد الفيلسوف أنه سعيد واستأنف إلحاحه على الفتاة واستأنفت الفتاة مدافعتة عن نفسها واحتمالت في ذلك حتى زعمت له أنها قد أحبت من قبله فتى كان لحبها أهلا وأحبها الفتى وسعد بهذا الحب ولكن لم يجد إلى الزواج سبيلا لأن الفتى كان معلقا مثلها يخاصم امرأته ولا يستطيع لها فراقا فيئست من الحب والسعادة وأزمنت أن تتصرف عن لذات الحياة أبدا ولكن الفيلسوف مغرم والغرام لا يعرف اليأس وهو إذا كان صحيحا قويا قد يتحول ويتشكل ولكنه لا يزول وما الذي يمنع غرام كونت أن يتخذ شكلا فلسفيا ولو إلى حين لقد كان عود نفسه الحرمان دهر طويل فألقى النبيذ ثم ألغى الفاكهة ثم اتخذ ميزانا يزن به ما يلائم حاجة جسمه من الطعام الخشن وكان ربما يكتفي بالكسرة من الخبز يتبلغ بها وهو يفكر في إخوانه من الناس الذين قد لا يظفرون بمثلها وما دام قد سيطر على نفسه إلى هذا الحد وعوده هذا الحرمان في الطعام والشراب فما له لا يزيد هذه السيطرة وما له لا يعود نفسه الحرمان لا في الحب بل في لذات الحب إذا فليبق حبه قويا حارا ولكن ليظل هذا الحب نقيًا طاهرا مجدبا من كل لذة ولينتظر وليجتنب اليأس فكل شيء يدنى الفتاة منه وكل شيء يدنيه من الفتاة لقد أصبحت زميلة له منذ نشرت بعض الصحف السيارة لها قصتها التي وضعتها عن نفسها فأصبحت كاتبة مثله تتحدث إلى الناس في الأدب كما يتحدث هو إلى الناس في الفلسفة هما إذا زميلان بل هما أكثر من زميلين فقد أخذت الفتاة تدنو من مذهبها في الفلسفة وتحس ميلا إلى

أرائه الاجتماعية وتكون منه مكان التلميذ والنصير فليجب إذا وليصير وفي أثناء ذلك كانت أم الفتاة تقول لها: لولا أن مسيو كونت قبيح دميم لقلت إنه يملكك ويدور حولك كما يدور العاشقون حول من يحبون ومع ذلك فإن من حق عليه لك ولنفسه أن يفكر في أن هذه الزيارات المتصلة المنظمة لا تليق بك ولا به لأنها تخالف العرف المألوف أشد الخلاف.

واتصلت زيارة أغست كونت لأسرة كلوتيد واشتدت الصلة بينه وبينها متانة وقوة وأخذت تزول من هذه الصلة بقايا هذه التكاليف الاجتماعية التي تواضع الناس عليها في حيلتهم المألوفة والتي لا يزيلها ولا بمحوها إلا المودة الخالصة إذا بلغت أقصاها أو الحب الصحيح إذا انتهى إلى غايته وألحت الأسرة في التعريض بهذه الزيارات المتصلة وبهذه الصلات التي كانت تتخلص شيئاً فشيئاً من التكلف والاحتشام ونزعت الفتاة نفسها وقتاً طويلاً في أن التحدث إلى الفيلسوف بهذه الريبة التي أخذت تثور حولهما في نفوس الأسرة ولكنها انتهت إلى أن أنبأته بما عندها من ذلك فاستمع لها ولم يحتج إلى تفكير وتقدير ليمتلئ قلبه سروراً وغيطة وليأخذه شيء من الكبرياء غريب في ظاهر الأمر ولكنه مألوف عند العشاق والمحبين وما له لا يسر ولا يغتبط والحب ترفع كل يوم بينه وبين من يهوى وما له لا يأخذه الكبر ولا يملؤه التيه وهو يثير الريبة في نفوس الأسرة ويضطرمهم إلى أن يشعروا بحبه للفتاة وبأن الفتاة لا تزدره ولا تفرط في ذاته ولا تنظر إليه في غير عناية ولا اكتراث؟ لعلها لا تحبه كما يحبها ولكن في قلبها عاطفة ما تعطفها عليه وتدفعها إليه ومن يدري؟ لعل هذه العاطفة أن تتحو وتقوى وتخضع لما يخضع له الإنسان بملكاته وعواطفه من التطور فيستحيل من المودة الخالصة إلى الحب العنيف وإذا فما له لا يستأنف سعيه والحاحه؟ وما له لا يدور حول قلب الفتاة لعله يجد سبيلاً لبلوغه والوصول إليه؟ وقد فعل فهذا الحنان الذي كان قد كظمه في نفسه أو أسبغ عليه لونا من الحد يجعله إلى الود أقرب منه إلى الحب قد أخذ يتجرد من ثوبه المتكلف ويظهر على حقيقته وفي صورته الصحيحة وقوته التي لا تبقى على شيء وهذا التحفظ الذي كان اصطنعه في الحديث يزول شيئاً فشيئاً وإذا هو صريح وإذا هو يجدد إعلان الحب ويكرر هذا الإعلان ويحيط الفتاة بشباك من الطلب والأمل والتضرع والاستعطاف والإغراء الذي يتجه إلى العقل حيناً وإلى الشعور حيناً آخر وكيف تريد أن تفلت الفتاة من هذه الشباك جميعاً وهي لا تكاد تخلص من واحدة حتى تتعثر في أخرى هي مضطرة إذا إلى أن تسالم بعض الشيء وتصانع إلى حد ما وتنهزم عن خط الدفاع الأول كما يقولون.

وهل كانت هي في نفسها منصرفة عن الفيلسوف حقاً راغبة عن حبه كل الرغبة؟ لست أدري ولكنها على كل حال عجزت عن المقاومة فكتبت إلى أغست كونت تتبئ به هذا العجز وتظهره على ذات نفسها وتبين له رأيها في التخلص من هذا الموقف الدقيق ورأيها أنها لم تكن

تقدر أن أحدا يكلف بها وينهال عليها وأنها هي لا تكلف بأحد ولا تتهاك على أحد ولكن أملها أن صح أن يكون لها أمل في الحياة إنما هو طفل تقف عليه حبها وحنانها وقوتها ونشاطها وهي إذا شاركت رجلا في الحياة فإنما قوام هذه الشركة الوصول إلى تحقيق هذا الأمل وهي حريصة كل الحرص على أن يكون شريكها أن ظفرت به رجلا ممتازا مرتفع النفس كبير القلب خليقا بالإكبار وهي تجد هذه الخصال كلها في الفيلسوف ولا تكره أن تتخذ شريكا في تحقيق هذا الأمل وخلق هذا الطفل ولكنها لا تريد أن تخدعه ولا أن تغره فهي لا تحبه بالمعنى المألوف لهذه الكلمة وحياتها ليست بالشيء النفيس الذي يحرص الناس على الاشتراك فيه فهي بائسة تحتاج إلى من يعز بها وهي فقيرة تحتاج إلى من يعولها وهي لا تحمل لشريكها إلا مودة صادقة وإخلاصا لا حد له.

ويقرأ الفيلسوف هذا الكتاب فيجن جنونه وتدور به الأرض ثم تهدأ نفسه وتشرق في وجهه الدنيا وتبتسم له الأيام وهل كان يطمع في أن تقبل كلوتيلد منه مثل هذا وترضى أن تكون له خلية وتقاسمه الحياة وتشاركه في خلق إنسان؟ وهو قابل إذا وهو راض وهو سعيد وهو واثق بأن هذه خطوة ستتبعها خطوات وهو يكتب إليها ويمضي كتابه على هذا النحو: زوجك المخلص أغست كونت.

وتزوره ذات يوم زيارة المستسلمة المستعدة للوفاء بالوعد وإنقاذ هذه الشركة فيلقاها فرحا مبتهجا ثم يجلسها ويجثو بين يديها ويقدم إليها صلاة فلسفية حارة ولكنه عالم لاحظ له من براعة الأدباء ولا من براعة الرجال الذين تعودوا عشرة النساء والتلطف لقلوبهن فصلاته فلسفية وحديثه بعد ذلك عملي كله وحركاته حين يضطرب في غرفته منظمة قد قدرت تقديرا فهو لا يرفع شيئا إلا بحساب ولا يضيع شيئا إلا على نظام ولا يأتي حركة إلا إذا كانت لها علة ظاهرة وتأويل معقول وهو يتحدث عن دخله وعما سيحتاجان إليه من نفقة وعن ترتيب البيت وعن النظام المادي للحياة وهو على هذا كله دميم لا جمال في شكله ولا روعة قصير متقدم البطن مضطرب الوجه فأين يقع هذا المنظر؟ وأين يقع هذا الحديث؟ وأين تقع الحركات المنظمة من قلب امرأة لم تتجاوز الثلاثين بعد؟ ما أسرع ما ضاقت بهذه الشركة ورغبت عنها وما أسرع ما ضحكت من نفسها في نفسها وما أسرع ما استيقنت أنها كانت تحاول أمرا لا قبل لها به ولا قدرة لها عليه وما أسرع ما نهضت وهي تقول: لقد تقدم الوقت دعني أكتب إليك وما أسرع ما خرجت من الباب وهبطت السلم وبلغت الشارع ومضت والفيلسوف ينظر إليها من النافذة فإذا هي تسرع أمامها لا تلتفت ولا تلوى على شيء وتكتب إلى الفيلسوف بعد ذلك معذرة متعللة قائلة إنها قد تعجلت الوعد وتبين لها انها في حاجة إلى التفكير الطويل وان الخير في أن تمهل نفسها لترى فلا يكاد الكتاب يصل إلى الفيلسوف حتى يحس أنه قد أذاها بحديثه فيكتب إليها متلظفا ملحا وتمضي

هي في إبانها ويشند هو في إلحاحه حتى إذا أثقل عليها أجابته في شيء من الشدة والصرامة أنها لا تستطيع أن تتبع نفسها ولا أن تساوم فيها فإن كان يقنعك ما عرضه عليك من المودة الخالصة الطاهرة فذاك ولك أن تلقاني في بيت أسرتي كدأبك من قبل ولا بد لي من ستة أشهر أفكر فيها وأروي وإلا فإني عائدة إلى ما كنت فيه من وحدة وعزلة هنا يفيق الفيلسوف من ذلك السكر الذي كان غمره وملاً عليه قلبه وعقله ويعود إلى حاله الأول ليس شديد الرجاء ولكنه ليس بأسا بل هو يعيد كل البعد من اليأس واثق بأن العقابة له وبأن الفوز لن يخطئه مهما يكن من شيء سيصبر إذا ويستأنف حياته الأولى فيلقي الفتاة في بيت أسرتها مرتين في الأسبوع.

وكلاهما سيء الحال ضيق ذات اليد أما هي فتبحث عن عمل لتعيش منه أو لترفه به بعض الشيء حياته الضيقة الخسنة وهي لا تتردد في أن تشغل مكان السكرتير في مكتب من المكاتب أو عند رجل ذي مال أن ظفرت به ولكنها لا تظفر بشيء ولا بأحد إلا فيلسوفا الذي قد وثقت به واطمأنت إليه فهي لا تخفي عليه من أمرها شيئاً وهو يعدها بالمعونة ويعرض عليها أن يقرضها ما تحتاج إليه بل يؤكد لها أن كل ما يملك من المال ملك خاص لها تستطيع أن تأمر فيه بما تشاء نعم ولكنه هو لا يملك شيئاً أو لا يكاد يملك شيئاً أعماله شاقه ونفقاته ثقال والمستقبل أمامه مظلم هو يلقي دروساً رياضية في بعض المدارس الحرة ولكن صاحب المدرسة يزيد أن يلغي هذه الدروس رغبة في الاقتصاد وهو يكسب شيئاً من مدرسة الهندسة ولكنه في حاجة إلى إضعاف هذا الذي يكسبه وهو يلح على تلاميذه في إنجلترا أن يرتبوا له رزقا معلوما ولكن التلاميذ لا يؤمنون لأستاذهم بهذا الحق وهو مضطر إلى أن يرزق امرأته ثلاثة آلاف فرنك في كل عام ولا بد له من أن ينقص هذا الرزق وأن يختزل منه ثلثه وهو على هذا كله يعمل وهو على هذا كله يحب وهو حريص على ألا يقصر في ذات فلسفته ولا في ذات عشيقته وعشيقته أيضا تعمل لخدمة الأدب أن اعجزها أن تعمل لكسب المال لقد نجحت قصتها الأولى بعض الشيء فما لها لا تكتب قصة أخرى وقد بدأت كتابه هذه القصة واتخذت نفسها لها موضوعا مع شيء من الرمز والإيماء وأخذت كلما كتبت شيئاً أرسلته إلى الفيلسوف فيقرأ ويعجب ويقرظ فيسرف في التقريظ.

ويستأنف زيارته للأسرة محتملا ما يرى من الإعراض يقابله بمثله في كثير من الأحيان حتى إذا كتب أخو الفتاة رسالة في الرياضة وعرضها على أساتذته ونظر الأستاذ فيها وأطال النظر فلم تعجبه فيضطر إلى أن يعلن ربه إلى تلميذه في غير تردد وإلى أن يتحدث إلى الفتاة بأن حبه لها وحرصه على مودة أخيها لن يمنعها من أن يعلن رأيه في هذا الكتاب الذي لا خطر له هنالك يزداد سخط التلميذ على أستاذه وهذا هو الذي يدور حول أخته ويشرب القهوة في البيت مرتين في كل أسبوع ثم لا يشجع تلاميذه ولا يعترف لهم بما يوفقون إليه من فضل.

ويشتد إنكار الأسرة على الفتاة ونثبث هي لإنكارهم فنجادلهم في أستاذها وتذودهم عنه وتخرج من عندهم مكدودة متعبة وتؤوي إلى بيتها وقد فقدت أو كادت تفقد الشجاعة والنشاط فتفكر في الفيلسوف وفي أنه الرجل الوحيد الذي يؤثرها بالحب ويصفيها المودة والعطف فتنازعها نفسها إليه ولكن نفورا قويا يمسكها أن تتدفع في هذا الحب فتكفي بالشكوى وتقبل من الفيلسوف عطفه وحنانه ومعونته المالية أيضا وكانت أعراض الضعف قد ظهرت عليها فأخذت تحس فتورا وانحلالا وأخذت تقاوم سعالا متكررا مضنيا ولم تقدر إلا أن ما تحسه عرض من أعراض هذا الجهد الذي تلقاه فصبرت واحتملت وجدت في كتابة قصتها وجدت أيضا في أنس إلى الأستاذ وأذنت له أن يزورها في بيتها الخاص فأحيت أمهه وبالغت في إحياء هذا الأمل حين أهدت إلى الأستاذ باقة من الزهر الصناعي صنعتها بيدها وأرسلت معها أبياتا من الشعر لا قيمة لها ولكن الفيلسوف رآها من آيات البيان.

وزارها الفيلسوف ذات يوم فإذا هي متعبة تلقي من الآلام جهدا شديدا فتحدث إليها وأطال الحديث واطمأنت هي إليه اطمئنانا شديدا فلما نهض لينصرف اختلس قبلة من فمها ولكنه لم يكذب يبلغ بينه حتى كتب إليها كتابا مشهورا يعتذر فيه من هذه القبلة لأنه لم يكن يثق حين اختلسها بأن نفسه كان نقيا طيب النشر وردت عليه في هذه السذاجة البديعة لا يأس عليك فأنا التي منحتك قبلة صديقة مخصصة.

ويشتد المرض والفقر بالفتاة ويشتد الهيام والبؤس بالفيلسوف وتزول بينهما الكلفة وتكثر الزيارة عندها وعنده ويعرض عليها خادمتها لتعنيها على الحياة فتأبى وتقضي الشتاء وحيدة عاملة لا يسلبها عما تجد إلا زيارات الفيلسوف لها وعطفه عليها وقد عرضها على الطبيب فقدر لها مرضا أخذ يعالجه وهو بعيد كل البعد عما كانت تجد واشترك الفيلسوف في الأوبرا على فقره ليسلي صاحبته بالموسيقى من حين إلى حين ولكنه لم ينس الحب ولم يفكر في الأعراض عنه فهو ما زال يلح على الفتاة ويتقاضاها هذه الصلة المادية التي تتوج ما بينهما من ائتلاف العقل والقلب وهي تقول: إنك تطالب بأجر ما تبذل لي من ود ومعونة فلن أماغل في تأدية هذا الأجر هنالك استحي الفيلسوف واستكبر فرفض هذا التسليم وأبى إلا صلة مصدرها الحب والرغبة.

وزارته ذات يوم وهي مكدودة قد أجهدها المرض واشتدت بها الحمى فلما انتهت إلى البيت استقلت على وسادة ونظر إليها هو وإن في عينه لحبا لا حد له وشهوة لا حد لها وإذا هو يرى عينيها الزائغتين من الألم وخديها اللذين توردهما الحمى فلا يرى إلا جمالا مغريا وحسنا فتانا وهي مستلقية أمامه لا حول لها ولا طول وهو قادر عليها ولكنه ليس قادرا على نفسه فهو يشتهي إلى حد الهيام ولكن عقله ووقاره يباين عليه هذا الغضب فتتحل هذه الشهوة الحادة العنيفة إلى حب وقور فيه شيء كثير من جلال الدين والمرض والبؤس يلحان على الفتاة والحب والفقر

يلحان على الفيلسوف وإذا هي قد لظمت غرفتها ولزمتها خادم الفيلسوف وجاء الطبيب فلم يشك في أنها مسلوثة مشرفة على الموت وكثر تردد أمها عليها وكثر تردد الفيلسوف أيضا وكانت بين الأم والفيلسوف حول هذا الجسم الناحل وهذه النفس التي تتأهب لمفارقة الحياة خصومات مؤلمة ولكنها لا تخلو من فكاهاة فأما الأم فكانت أسيرة الأوضاع الاجتماعية أسيرة هذا الحب الذي يعطف المرأة على ابنها وأما الفيلسوف فكان أسير هذا الحب ال اذي يعطف المرأة على ابنتها وأما الفيلسوف فكان أسير هذا الحب الفلسفي ولم يكن يتردد في أن يعلن أنه وحده صاحب الأمر في هذا البيت لأنه الزوج الخالد للفتاة ولم لا؟ لقد كان ينهض بكل ما تحتاج إليه ويعرف من تمريضها ما ظهر وما خفي لقد كتبت إليه مرة تقول ما أشد حاجتك إلى الرحمة أيها العاشق التعس فلم تظفر من خليلتك إلا بشر ما يظفر به الأزواج وكان مؤلما جدا وباعثا للابتسام أحيانا أن يرى الفيلسوف جاثيا أمام السرير وهو يصلي إلى الفتاة فيدعوها أخته وزوجه وابنته ويؤكد لها ويقسم ليعصمها من الموت ولئن عبثت الطبيعة بجسمها فليضمن هو لنفسها الخلود ولم لا؟ أليست أرقى امرأة عرفتها الإنسانية؟ لقد لقيت أرقى عقل عرفته الإنسانية فلن يكون للفناء عليك ولا على سلطان.

وساءت حال الفتاة ودعي القسيس ليهيئها لاستقبال الموت فلم تمنع هي ولم يمانع هو وأقبل القسيس فأدى عمله والفيلسوف يراه ويسمع له ساخطا حتى إذا انصرف أقبل فأنكر هذه العادة الدينية التي تنتزع المريض انتزاعا من الحياة لتدفعه بين ذراعي الموت.

أقبل عذب الصوت رضي النفس حنون القلب فجثا إلى السرير وحتى على الفتاة وأخذ يحدثها أحاديث عذبة كلها أمل وكلها رحمة ثم انصرف وعاد فإذا الأسرة كلها مجتمعة وإذا هم يأبون عليه أن يصل إلى المريضة فتثور ثائرتة ويخرج عن طوره ويأبي أن ينصرف ويهم بإخراجهم جميعا لأن المريضة زوجه وخليته وهي له وحده دونهم وبذلك اعترفت له وعلى ذلك أقسمت له فيجب أن يخلي بينه وبينها فأما الأم فتتكر وتبكي وتستخذي وأما الأخ فيقبل على أستاذه منذرا وأما الأب الشيخ فيقبل هادئا وقورا هنا يطلب إلى الفيلسوف أن يدع المريضة لأهلها.

فانظر إلى الفيلسوف وقد جثا أمام الشيخ ضارعا مستعظفا حتى رق له الشيخ فقال: انصرف الآن ولك علينا أن ندعوك إذا استئسنا منها خرج الفيلسوف فلزم داره فلما كان من غد جاءه الرسول فأقبل مسرعا حتى انتهى إلى البيت فلما رأته الأسرة انفرجت له وخلت بينه وبين غرفة الفتاة فدخل وأغلق الباب من دونه وأرتجه فأحكم إرتاجه وأقام ساعات طويلا لا يخرج ولا يدخل عليه أحد ويستطيع الخيال أن يذهب كل مذهب في تصور ما قال الفيلسوف للفتاة المحتضرة أو ما عمل أمام هذا الحب العظيم الذي كان الموت يغلبه عليه قليلا قليلا. فلما تقدم

النهار ودنا المساء فتح الباب وخرج صامتا لا يلوي على شيء فأقام في داره ولم يشهد الجنازة ولم يشيعها إلى القبر وماذا يعنيه من الجنازة؟ لقد حاول أن يصل إلى هذا الجسم فلم يجد إليه سبيلا وحاول أن يصل إلى هذه النفس فلم تقاومه ولم تمتنع عليه وإنما أسرع إلى فاقامت في عقله وقلبه لم تمت كلوتيلد وإنما أودعته خير ما فيها فهي إذا في قلبه هي إذا تقاسمه حياته الزائلة حتى إذا انقضت هذه الحياة الموقوتة امتزجت بنفسه فكانت منها نفس واحدة خالدة. عكف الفيلسوف في داره على هذه الصورة يعيدها ويهيم بها وما هي إلا أن استحال حبه لكوتيلد دينا وضعت له التقاليد وألوان الصلوات والعبادات. وأغرب من هذا كله أن الحياة الظاهرة للفيلسوف لم تتغير فدروسه كانت تلقي في نظام ومجالاته كانت تقرأ في نظام ورسائله كانت تقرأ ويرد عليها في نظام أيضا.

ما أعجب أمر الإنسان! تراه ساذجا يسيرا وإن شخصه لشديد التعقيد.